إعجاز القرآن دراسة للتعبير البياني القرآني

بدأت هذه المرحلة منذ مطلع ق4هـ، وبها انتقلت دراسة إعجاز القرآن من نظرات مُجمَلة إلى دراسة مفصّلة، وتحول النظر إلى الإعجاز من كونه وسيلة إلى غاية سامية –هي إثبات النبوة والمصدر الرباني للقرآن. لهذا جاءت الوقفة أمام التعبير القرآني نفسه، وأساليب البيان المعجز فيه، ومظاهر النظم الدقيق السامي فيه؛ وفي هذه المرحلة نشأ علم (البلاغة القرآنية) أو علم (أساليب البيان في القرآن) أو علم (النظم القرآني الرائع).

مفهوم البيان هو المدخل الأساس لإدراك تصورات البلاغة العربية للخصائص النوعية للنص الأدبي باعتباره عملا تخييلا ذا طبيعة متميزة. وللبيان في اللغة عدة معان منها:

1/ ما بين به الشيئ من الدلالة وغيرها، وبان الشيئ بيانا اتضح فهو بين.

2/ الفصاحة واللسن وكلام بيّن فصيح.

3/ الإفصاح من ذكاء القلب، والبيّن من الرجال: الفصيح.

4/ إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور. وهذه المعاني تدور على القدرة والتمكن من التعبير ذي الخصائص الفنية التي يتحول معها الكلام إلى ما يشبه السحر في فعله، وذلك مما يختص به الإنسان من بين سائر المخلوقات، لذا قال سبحانه وتعالى:"خلق الإنسان علّمه البيان" سورة الرحمن،آية 3،4 وفي المراد بالإنسان والبيان هنا أقوال أجملها الزجاج في قوله:"قيل إنه عني بالإنسان النبي علمه البيان: أي علمه القرآن الذي فيه بيان كل شيئ. وقيل الإنسان هنا آدم عليه السلام، ويجوز في اللغة أن يكون الإنسان اسما لجنس الناس جميعا، ويكون على هذا "علّمه البيان" جعلها مميزا حتى انفصل الإنسان ببيانه وتمييزه من جميع الحيوان" وهذا المعنى الأخير أهم ما اشتهر بين رجال الفكر البياني.

لهذا لم يبتعد المصطلح عن المعنى اللغوي؛ فالبيان كشف وإظهار وإبانة، لذا قال الجاحظ:"...والبيان اسم جامع لكل شيئ كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيئ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع". واضح من التعريف أنه يركز على الغاية من البيان، وهي الإفهام والإيضاح والإقناع، لذا كان المتلقي هو العنصر الأساس الذي ينطلق منه التعريف، بل هو الهدف من العملية البيانية، مما جعل هذا التعريف يبدو على أنه محاولة لوصف الغاية من الأداء في التواصل بين أفراد المجموعة، دون الترعض للكيفية التي يكون بها ذلك الأداء.

بدأ البيان القرآني –بحسب ترتيب النزول- بنفي تعلم الرسول الشعر (صلى الله عليه وسلم) وذلك في قوله تعالى:"وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" يس:69. ما ينبغي الإشارة إليه من أن بعض ذوي المكانة والخبرة بفن الشعر من هؤلاء لمشركين (الوليد بن المغيرة) قد صرحوا بأن القرآن ليس من قبيل الشعر، الأمر الذي يبعد معه أن يكون الذين تشبثوا بترديد تلك التهمة، وحاولوا ترويجها بين وفود العرب، لم يقصدوا بها سوى وصف القرآن بتلك الصفة التي تتعالى الأصوات من بين ظهرانيهم بنفيها عنه.